- 4 -

مهوّس بالسيطرة

غادر موكبنا القصر الجمهوري، يملأ الدنيا هديراً، بينما كان معظم موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة يتناولون إفطارهم. تقدمتنا عربتا همفي، تحوي إحداهما مدفعاً رشاشاً على سطحها، والأخرى قاذفة قنابل. استقل كل عربة أربعة جنود مسلحين ببنادق «الإم 16»، ومسدسات من عيار 9 ملم. احتوى الموكب في المؤخرة على عربتي همفي أخريين، مجهزتين بالطريقة ذاتها. تحركت ثلاث من عربات السوبربان في الوسط. استقل الأولى خمسة رجال مسلحين، يرتدون قمصاناً ضيقة سوداء، وسراويل الكاكي العسكرية، ونظارات شمسية. جهز الرجال، علاوة على ذلك، بالميكروفونات في آذانهم، والبنادق الآلية، والسترات الواقية، ذات الصفائح الصلبة القادرة على صد عيارات البنادق الآلية من طراز «إي كى 47». لم يحملوا أي علامات مميزة، وأبقوا بطاقاتهم التعريفية داخل ستراتهم الواقية. انتمى جميعهم في السابق إلى القوات الخاصة في البحرية الأمريكية، وكانوا يعملون في بغداد لصالح شركة «بلاك ووتر يو إس أيه» الأمنية الخاصة. لم تتمثل مهمتهم سوى في حماية الحاكم الأمريكي.

استقللت سيارة السوبربان الثانية برفقة جيري بريمر، وقد كانت نوافذها واقية من الرصاص، بسماكة نصف بوصة، ناهيك عن أبوابها المدعمة بصفائح فولاذية قادرة على احتمال القذائف الصاروخية. جلس بريمر في المنتصف، بجانب دوروثي مازاكا، كبيرة مستشاري التعليم في المدارس الابتدائية والثانوية، بينما تموضع حارسان من بلاك ووتر في المقدمة. جلست في مؤخر العربة، بجانب مستشار بريمر الصحافي. استقل السوبربان الثالثة ثلاثة من مصوري التلفزيون، واثنان من المصورين الصحفيين، بغية تصوير جولة بريمر خارج المنطقة الخضراء.

تمتع بريمر بالنشاط والحيوية، حريصاً على تصفيف شعره الأشيب بصورة أنيقة. كان قد استيقظ في الخامسة من صبيحة ذلك اليوم، لممارسة العدو الخفيف، مسافة ثلاثة أميال، في حديقة القصر. قصد الرجل قاعة الطعام، بعد الاغتسال، وارتداء ثيابه – بزة رسمية، وقميص أبيض أنيق، وربطة عنق حمراء، وحذاء عسكري فاتح اللون – ليتناول الإفطار على عجل، قبل التوجه إلى مكتبه للاطلاع على البرقيات الواردة ليلاً، ومقتطفات من الصحف الصباحية، وبرنامج عمله اليومي. اعتاد بريمر الاجتماع بموظفيه، عند الثامنة، في إحدى قاعات صدام المذهبة. اتسمت تلك اللقاءات بالعبثية، حيث كان يتعين على المشاركين إبداء آرائهم في نصف دقيقة، أو ما يقل عن ذلك. كانت القرارات تتخذ بالسرعة ذاتها، على حد سواء.

تمثلت محطتنا الأولى، أثناء الجولة الصباحية، في مدرسة ابتدائية جنوب غربي بغداد. كنا في شهر حزيران/ يونيو من العام 2003، وقد وصل بريمر العراق فيما يقل عن الشهر من حينه. حرص الرجل على إظهار اختلافه عن جاي غارنر في أعين العراقيين والأمريكيين. تجسدت الوسيلة الأمثل للقيام بذلك، في نظر بريمر ومستشاريه، في التجول باستمرار، أمام أعين العدسات، كما يفعل رؤساء الدول. عمل الرجل، علاوة على ذلك، على أخذ الصور يومياً، وعقد المؤتمرات الصحفية أسبوعياً، ناهيك عن التنقل في أرجاء البلاد بطائرته المروحية من طراز «بلاك هوك». منح قرار مجلس الأمن الولايات المتحدة سلطات واسعة كونه قوة احتلال، وقد خول الرئيس بوش بريمر استخدام العديد منها، مما جعله المسؤول الأول بحق.

مثلت زيارة المدرسة فرصة أخرى لالتقاط الصور، وإظهار اهتمام سلطة الاحتلال بحاجات العراقيين. يقدر العراقيون العلم بما يفوق أياً من الأمور الأخرى، على وجه التقريب، وقد أمل بريمر أن يسهم التعهد بتأهيل المدارس في إقناع المترددين من العراقيين بدعم سلطة الائتلاف المؤقتة.

فصلت ساحة المدرسة بين حرم للذكور وآخر للإناث، وقد حرصت مازاكا على اختيارها بعناية. عمدت قوات صدام، أثناء حملة الصدمة والرعب، إلى تخزين أسلحة في أحد صفوف المدرسة. لم يكن تأييد مديرة حرم الإناث الغزو الأمريكي

بخـافٍ. افتقر كلا الحرمين إلـى الكهرباء والمياه الجارية، وقد كان الطلاب يقضون حاجتهم خلف المدرسة.

ألقى بريمر التحية بالعربية، بينما توجه إلى الساحة، قائلاً: «السلام عليكم».

رد المعلمون التحية بمثلها، قائلين: «وعليكم السلام».

جـال بريمـر، برفقـة المديرة، في حـرم الإناث. بلغ عـدد التلميـذات 635، وقد اضطـررن إلـى الحضور في دفعتيـن جراء نقص المقاعد. تفقد الرجـل عدداً من الصفوف المفتقرة إلى الإضاءة، والمراوح، والطباشير. حرص فريق سلطة الائتلاف على إبراز الحوار الذي دار في ختام الجولة أمام أعين العدسات.

تحدثـت مـازاكا قائلـة: «سيزوركـم المهندسون، فـي بضعة الأسابيـع اللاحقة، للمشاركة في إعادة تأهيل المدرسة».

عقب بريمر بدوره قائلاً: «نحن ملتزمون بمساعدتكم».

توجهنـا، فيما بعـد، إلى حرم الذكـور. دخل بريمر أحد صفوفـه، الحاوي على خمسـة عشر من الطلاب، ممن لا يتقنون الإنجليزية. تبعه مصور التلفزيون، بينما تحدث قائلاً:

«نعمـل على إعادة ترميم المدرسة بصـورة شاملة». أكد الرجل على أن «القرار يعود للعراقيين» فيما يتعلق بعملية مراجعة المناهج، واعداً –في الوقت ذاته– بحذف كل ما يمجد صدام. سـأل بريمر التلاميذ، عبر مترجمه، عن رياضتهم المفضلة، لتتمثـل بكرة القدم، كما أجاب أحدهـم. عقب الرجل، بصورة استعراضية، قائلاً: «حسناً، سنزودكم ببعض الكرات أثناء بضعة أيام». التفت بريمر إلى أحد معاونيه، دون أن ينبـس ببنـت شفة، لتعبر نظرته عما أراد قولـه: «كلف أحدهم بجلب بعض الكرات فوراً!».

تناقل الحوار، مع مغادرة بريمر الفصل، الأخبار المتعلقة بوجود الحاكم الأمريكي في المدرسة، ليحتشد المئات في حرمها.

صرخت إحدى النسوة، بلغة إنجليزية ركيكة، بينما كانت تمسك ذراع ولدها، قائلة: «أرجوكم ساعدونا. نشعر بقلق عميق لانعدام الأمن. يوجد من يخطف أطفالنا».

عقبت امرأة أخرى قائلة: «يمثل الأمن مشكلة كبيرة، نحن خائفون».

توجه بريمر بالحديث إليهما، قائلاً: «نتفهم مخاوفكما، ونعمل جاهدين لاستعادة الأمن. نعتقل عدداً من الأشخاص يومياً».

أومأت كلتاهما برأسيهما موافقتين، دون أن يقنع البقية. انضم عدد من المعلمين إلى المساءلة، قبل أن يستوضح أحدهم قائلاً:

«هل يمكن أن نحظى بالأمن حول المدرسة أثناء الامتحانات؟».

أجابه بريمر قائلاً: «سنتحدث إلى الجيش بخصوص ذلك».

صرخ آخر قائلاً: «أرجوك يا سيد بريمر، نريد الحصول على رواتبنا».

عقب بريمر قائلاً: «ندفعها بما أمكننا من سرعة».

سارع حراس بريمر إلى إدخاله السيارة، قبل أن يودع المديرة، بينما كان الباب يغلق، قائلاً: «حظاً طيباً».

عقبت الأخيرة قائلة: «إن شاء الله».

سألت بريمر، بينما كنا نغادر مسرعين، عما إذا كان يعتقد بوجود قوات أمريكية كافية في بغداد، بالنظر إلى تواصل عمليات النهب. ذكر الرجل لاحقاً، في كتابه «عامي في العراق»، أنه أرسل إلى رمسفيلد، في أيار/ مايو 2003، نسخة عن مسودة تقرير لمؤسسة راند للأبحاث، يقدر الحاجة إلى خمس مئة ألف جندي لنشر الاستقرار في العراق – ما يعادل ثلاثة أضعاف عدد القوات الأجنبية الموجودة في حينه. لم تصدر عن رمسفيلد أي استجابة بحسب بريمر. ذكر الأخير، علاوة على ذلك، أنه أطلع الرئيس بوش على مخاوفه أثناء تناولهما الغداء في الشهر ذاته، ناهيك عن شهر حزيران/ يونيو، في لقاء، عبر دائرة تلفزيونية مغلقة، مع أعضاء مجلس الأمن

القومـي برئاسة بوش. لم يصرح الرجـل، بكل الأحوال، عن تلك الجهود، حينما سئل من قبل الصحفيين عن حجم القوات في حينه.

أجابنـي بريمـر قائـلاً: «أعتقد بوجود مـا نحتاج مـن الجنود حاليـاً». تمثلت المشكلـة، برأيه، فـي إعادة ضباط الشرطـة العراقيين إلى عملهـم، بالنظر إلى تغيب العديد منهم.

أردف بريمـر قائـلاً: «يعد صدام المسؤول عن تلـك المشكلة، بعد أن أطلق سراح عشرات الألوف من المجرمين قبل الحرب». عبّر الرجل، مع ذلك، عن اعتقاده بأنهم لـم يكونوا وحدهم المسؤولين عن النهـب، وأنه يمثل ردة فعل جماعية على ما تعرض لـه العراقيون من قمع. تابـع بريمر قائلاً: «عندما تأتي إلى هنا، وترى معالم السخط والألم على وجوه الناس، فسيتضح للغاية كم كان النظام السابق شريراً».

سألته قائلاً: «ما أولويتك القصوى؟».

تمثـل رده بالإصـلاح الاقتصادي، حيـث كان يملك خطة من ثـلاث مراحل: أولاً، إعـادة توفيـر الكهرباء، والميـاه، وغيرهما مـن الخدمـات الأساسية. ثانيـاً، توفير «السيولـة لدى الناس» – إعـادة افتتاح المصارف، وتوفيـر القروض، ودفع الرواتب. ثالثـاً، «تحرير وخصخصة الشركات المملوكة من قبل الدولة»، و«تخليص الناس من الفكرة المتمثلة في دعم الدولة كل شيء». امتلكت حكومة صدام المئات من المصانع، ناهيك عن دعم أسعار الوقود، والكهرباء، والأسمدة، وتوفير حصص الطعام للعوائل شهريـاً. لم تبدُ تلك السياسة محتملة في نظر بريمـر، باعتبارها اشتراكية إلى أبعد الحـدود. تحـدث الرجل قائـلاً: «ستمثل عملية شاقـة، مؤلمة للغاية، كمـا في أوروبة الشرقية بعد سقوط جدار برلين».

سألتـه قائلاً: «ولكن ألن يكـون ذلك معقداً وجدلياً إلى أبعد الحدود؟، لم لا نترك الأمر للعراقيين؟».

لـم يأتِ بريمر إلى العـراق لبناء ديموقراطية فحسب، بل إقامـة اقتصاد سوق حرة. أكد الرجل على تلازم مساري الإصلاح الاقتصادي والسياسي، قائلاً: «لن تنجح خططنا المتعلقة بالتحول السياسي، مهما كانت محكمة، إن لم نعمل على إصلاح اقتصادهم».

تأثرت إلى حد كبير، بينما كنا نتحدث، بما يتصف به بريمر من حماسة لمساعدة الشعب العراقي. انصب اهتمامه على المستقبل، بما ينعش الآمال، بينما انحصر تركيز واشنطن على ما امتلكه صدام من أسلحة دمار شامل مزعومة، ناهيك عن انتهاكات حقوق الإنسان في ظل حكمه. تساءلت عما إذا كانت تطلعاته ستتغير ما إن يحتك بالعراقيين بصورة أكبر، أو يتقيد بما تصدره واشنطن من تعليمات، ولكن سرعان ما تبددت شكوكي على ضوء رؤيته للعراق الجديد. رغب بريمر، كما بدت الحال عليه، في أن تتعاظم مطامح أمريكة في العراق كما كانت عليه في ألمانية واليابان بعد الحرب العالمية الثانية. وجدتني أؤمن بالرجل، بعد ربع ساعة، لا أكثر، من التحاور معه.

وصلنا، بحلول تلك المرحلة، إلى جامعة بغداد، المبنى الفسيح، الذي يوفر العلم لخمسين ألف طالب، الواقع على الجهة الشرقية لنهر دجلة. قصد بريمر الجامعة للالتقاء بعمدائها، الذين اشتكوا، كما معلمو المدرسة الابتدائية، من انعدام الأمن، ناهيك عن أحد قوانين حقبة صدام، الذي يمنع أساتذة الجامعة وعمداءها من السفر إلى الخارج، مخافة عدم عودتهم. أنصت بريمر باهتمام، بالنظر إلى امتلاكه القدرة على حل تلك المشكلة.

أصدر الرجل، في اليوم الثاني، القرار الثامن لسلطة الائتلاف المؤقتة، الذي ينص على الآتي:

«إلغاء أي من القوانين، أو الضوابط، أو التوجيهات، أو السياسات المتعلقة بالحكومة العراقية السابقة، التي تنص على فرض القيود والإجراءات على أعضاء هيئة التدريس، والموظفين، والطلاب في الجامعات العامة، والكليات، وغيرها من مؤسسات التعليم العالي، الراغبين في السفر إلى الخارج لأغراض دراسية».

لم يكن يتعين على بريمر، بصفته الحاكم، سوى التوقيع على ما يسن من القوانين الجديدة، أو يلغي من القديمة. لم يكن بحاجة إلى التشاور مع العراقيين، أو حتى الحصول على موافقتهم. تحدث الرجل، بينما كنا عائدين إلى المنطقة الخضراء، قائلاً: «نمثل السلطة المحتلة طالما بقينا هنا. هو اسم بغيض للغاية، ولكنه يعكس الحقيقة».

سألت بريمر، عند وصولنا القصر، عما إذا كان يرى نفسه كدوغلاس ماك آرثر، الجنرال القوي، المتسلط، الذي تولى حكم اليابان ثلاث سنوات عقب الحرب العالمية الثانية.

أجابني الرجل، بينما كان يغادر العربة، قائلاً: «لست بماك آرثر. لن أكون سوى نفسي».

توجه هنري كيسنجر، بعد وقت قصير من وصول بريمر إلى بغداد، لزيارة كولن باول في مكتبه الفسيح في وزارة الخارجية. اعتاد كيسنجر، الذي شغل منصب وزير الخارجية في السبعينيات، التردد على باول لتبادل الأحاديث في مختلف الموضوعات. تحول الحوار، في ذلك اليوم، سريعاً نحو العراق، ليسأل باول كيسنجر عن أسلوب بريمر في الإدارة. أمضى الأخير خمس عشرة سنة في العمل مع كيسنجر، معاوناً خاصاً له حين كان وزيراً، ومديراً إدارياً، فيما بعد، لشركته الاستشارية.

أجاب كيسنجر باول قائلاً: «هو مهوّس بالسيطرة».

لم تكن الدهشة بخافية على باول. إن قال كيسنجر، المشهور بتلك الصفة، إنها تسم بريمر أيضاً، فلا بد أنه كان محقاً في ذلك.

توصلت رايس ومعاونها، ستيفن هادلي، بالعودة إلى البيت الأبيض، إلى الاستنتاج ذاته. عبر بريمر بما لا يدع مجالاً للشك، في لقائه مع الرئيس بوش في المكتب البيضاوي، عن رغبته في تولي السيطرة الكاملة على عملية إعادة إعمار العراق وحكمه. لم يرد الرجل، كما قال لاحقاً، أن تتولى واشنطن إدارة كل من التفاصيل «على بعد ثمانية آلاف ميل».

أعلم بريمر هادلي، بعد بضعة أسابيع من توجهه إلى العراق، بعدم رغبته في إخضاع قراراته للمجموعة المتمثلة في وزارة الخارجية، والبنتاغون، والسي آي أيه، ومجلس الأمن القومي، بما يمكنها من مراجعة تلك القرارات، والتعقيب عليها. لم ير الرجل في ذلك سوى إضاعة للوقت. ارتأى كل من رايس وهادلي إبقاء الرقابة على

بريمر، ولكنه كان الأدرى بالأوضاع بحكم وجوده على الأرض، ناهيك عن رغبة البيت الأبيض، بعد فشل غارنر، في إيلاء المسؤولية إلى شخصية قيادية. قبل هادلي مطلب بريمر، مشترطاً عودته إلى المجموعة قبل البت في أي من المسائل المهمة.

أسر بريمر إلى المقربين في بغداد بعدم رغبته في التعامل مع المجموعة في واشنطن. عين الرجل من قبل الرئيس، وقد كان يتواصل معه عبر وزير الدفاع. لم يكن بريمر ملزماً، فيما عدا ذلك، بالتعامل مع أي جهة أخرى. كان يوجه معاونيه للرد عندما تأتيه الرسائل من بول وولفويتز أو دوغلاس فايث.

تعين على واشنطن انتظار موافقة بريمر على أي من مطالبها إلى موظفيه، دون أن يستثني ذلك السائلين من البيت الأبيض. عمدت معاونته التنفيذية، جيسيكا ليكروي، إلى إرسال رسالة إلكترونية إلى كل من المستشارين البارزين في سلطة الائتلاف المؤقتة، مطالبة إياهم بعدم قبول المهام الموكلة إليهم بصورة مباشرة من قبل المجموعة في واشنطن.

لم يرَ بريمر في القصر سفارة أمريكية، تلتزم بإرسال تقارير منتظمة، عن التطورات على الأرض، إلى وزارة الخارجية ومجلس الأمن القومي. عمل الرجل على إعلام الرئيس ورمسفيلد بآخر ما يستجد لديه أسبوعياً، بصورة مباشرة، عبر دائرة تلفزيونية مغلقة. اعتاد باول ورايس المشاركة في تلك اللقاءات، ولكنهما كانا يتوقان، مع موظفيهما، إلى الحصول على المزيد من المعلومات. عمد معاونو باول، بصورة سرية، إلى تشجيع موظفي وزارة الخارجية العاملين لدى سلطة الائتلاف على إرسال التقارير إلى الوزارة. استخدم أولئك بريدهم الإلكتروني الشخصي، على موقعي «الهوت ميل» و«الياهو»، كيلا يفتضح أمرهم. بدأ أحد معاوني رايس البارزين، في مجلس الأمن القومي، بتصفح موقع سلطة الائتلاف المؤقتة على شبكة الإنترنت يومياً، للاطلاع على ما يصدره بريمر من قرارات جديدة. فاقت تلك الوسيلة في سرعتها القنوات الرسمية.

لم يعين بريمر أياً من المعاونين بصورة رسمية، أثناء بضعة الأشهر الأولى من وجوده في بغداد. اصطحب الرجل برفقته ثلاثة من الدبلوماسيين المخضرمين

للعمل مستشارين – مثل السفير المتقاعد كلايتون مكماناوي أحدهم، وقد كان صديقاً قديماً لبريمر، ناهيك عن هيوم هوران، أحد أبرز «المستعربين» في وزارة الخارجية. انحسرت أدوار الثلاثة سريعاً، بكل الأحوال، من قبل مجموعة من المعاونين الشباب المتملقين، الذين نأوا بأنفسهم عن تحدي قرارات بريمر إلا فيما ندر. لم يكن قد سبق لمعظمهم العمل في الحكومة من قبل، وقد تدنت المراتب الوظيفية لمن فعلوا، بحيث لم يدينوا بالفضل لأي من المسؤولين في الديار. لم تتمثل أي من أفكارهم السابقة سوى في إيمانهم الراسخ ببناء عراق ديموقراطي، وقد كان ولاؤهم مطلقاً للحاكم الأمريكي.

عمل بريمر، قبل وصوله إلى العراق، على تحييد زلماي خليل زاد، مبعوث البيت الأبيض، المكلف بالعمل على ملف التحول السياسي. أمضى خليل زاد، المولود في أفغانستان، الذي أصبح في نهاية المطاف سفيراً لدى عراق ما بعد الاحتلال، أشهراً طويلة في التعامل مع سياسيي العراق المنفيين، مما أكسبه الخبرة في ذلك المجال، بما يفوق أياً من نظرائه داخل الحكومة الأمريكية، ناهيك عن فوزه بثقة المنفيين إلى أبعد الحدود. افترض باول وآخرون في وزارة الخارجية، ما إن عين بوش بريمر في منصبه، أن خليل زاد سيصبح معاونه الرئيس، ويبقى المسؤول عن تشكيل حكومة مؤقتة. لم يرد بريمر في بغداد، بكل الأحوال، من يملك علاقة سابقة بالقادة العراقيين. رأى الرجل في خليل زاد تهديداً محتملاً – لمعرفته باللاعبين وشؤون البلاد، بما يفوق الحاكم الأمريكي، وقدرته –من ثمّ– على مخالفة قراراته.

أصر بريمر على متابعة التفاصيل بدقة. اعتاد الموظفون إطلاعه على الآلاف من الوثائق الروتينية، تلبية لأوامره. عمل الرجل على قراءتها على مائدة الإفطار، أو في أوقات متأخرة من الليل، أو على متن طائرته المروحية. خاطبني أحد الموظفين بذلك الشأن، قائلاً: إن التاريخ يعيد نفسه: اعتاد صدام المصادقة على أتفه القرارات، كيلا يعارضه الآخرون ولو عن طريق الخطأ. أردف الموظف قائلاً: «لم يتغير الوضع. لا يمكننا القيام بأي شيء من دون موافقة بريمر».

تقبل بريمر الآراء المغايرة أثناء النقاشات، مرحباً بها، دون أن يشمل ذلك ما يتخذه من قرارات. لم يسمح الرجل بمخالفة أوامره، وقد كان الجميع عرضة للتوبيخ بغض النظر عن مناصبهم. رد بريمر بانفعال على السير جيريمي غرينستوك، الممثل الشخصي لرئيس الوزراء البريطاني توني بلير في بغداد، حين تجرأ، في اجتماع بحضور باول، على وصف أحد قراراته بالقاسية. كانت رسالة الحاكم الأمريكي واضحة للجميع: لا تعارضوني.

كتب بريمر في العام 2002، في مقال لمجلة «دايركترز آند بوردز»، قائلاً: إن «الإجراءات السريعة الحاسمة ضرورية في وقت الأزمات، وإن اتخذت القرارات في ظروف الحرب الضبابية». لم يخالف الرجل ما كان ينادي به. اتسم بالحيوية في عمله، وقد أبدى الموظفون المتذمرون دهشتهم من سرعته في الرد على ما يطالبهم به من مذكرات عديدة، مضمناً ملاحظاته في هوامشها.

تعين على كل من يتعاطى الشأن العراقي في واشنطن، من وجهة نظري، أن يقرأ مقال بريمر. أضاف الرجل قائلاً: «لا يمكن تطبيق خطط إدارة الأزمات بعد وقوعها مباشرة. لا تتسم المعلومات، في بداية المطاف، بالغموض فحسب، بل والتناقض في كثير من الأحيان. تتطور الأحداث بسرعة كبيرة، بحيث يشعر صانعو القرارات بحس من فقدان السيطرة. تأخذ حالة من الإنكار في الحلول، في كثير من الأحيان، ليتجاهل المديرون، عن غير قصد، سيل المعلومات الواردة عن الأوضاع».

اعتاد بريمر النوم، أثناء بضعة الأسابيع الأولى، على سرير مزدوج في الطابق الثاني من القصر، في غرفة تفتقر إلى تكييف الهواء. انتقل الرجل، بعد وقت قصير، إلى إحدى المقطورات، قبل أن يستقر في فيلته الخاصة التي عملت هاليبرتون على تأثيثها بالأرائك، ومائدة طعام لما يزيد عن عشرة الأشخاص، ومكتب لمزاولة المهام.

اعتاد الرجل التوجه إلى مكتبه في السادسة والنصف صباحاً، بعد ممارسة العدو الخفيف، والاغتسال، وتناول الإفطار، ليجلس خلف مكتب خشبي ضخم، يحوي هاتفاً، وحاسوباً ذا شاشة مسطحة، والعديد من المذكرات. تقدم المكتب طاولة ثمانية الأضلاع، مخصصة للقاءات المعاونين. اكتست الجدران بخرائط العراق

ومحافظاتـه الإداريـة، وخلت الرفوف من الكتب، على وجـه التقريب، باستثناء كتاب عـن إدارة الأزمات المالية، وآخر بعنوان «القيـادة» لرودي جولياني، ناهيك عن علبة لحبـوب الإفطار من نوع رايزين بران. احتوى أحد الرفوف على صورة مؤطرة لبريمر حين أنهى سباق بوسطن للماراثون، في العام 1991، قاطعاً مسافته في ثلاث ساعات وأربـع وثلاثيـن ثانيـة. كان يبلغ الخمسين فـي حينه، وقد مكنه التوقيـت من الحلول ضمن العشر الأوائل في مجموعته العمرية، وإن تندر في كثير من الأحيان بشأن «تلك الثوانـي الأربع والثلاثين» –التي حرمته من إكمال السباق في أقل من ثلاث ساعات– قائـلاً: إنهـا «لن تبرح مخيلته حتـى ينقضي أجله». احتوى المكتـب كذلك على لوحة خشبية تحمل العبارة الآتية: «للنجاح ألف أب». انتاب التوتر بريمر، أثناء أسابيع عمله الأولـى، حين أكمل أحد زواره الجزء الثاني من المقولـة الشهيرة – «والفشل يتيم» – ليعقب قائلاً: «لن يكون هناك أي فشل».

أدار بريمـر سلطـة الائتلاف المؤقتة كبيـت أبيض صغير. اعتـاد الرجل الاطلاع علـى ملخص أمني استخباري موجز، فـي السابعة والربع، ليجتمع بالجنرال ريكاردو سانشيـز، قائد القوات الأمريكية في العراق، فـي السابعة والنصف، ويلتقي موظفيه البارزيـن بعد نصف ساعة. نزع بريمـر يومياً، بعد انتهاء تلك الأنشطة، إلى أداء دور «مسؤول الاحتلال الأول»: الالتقاء بالقادة العراقيين، وزيارة المستشفيات، والمدارس، ومحطات الطاقة، وأخذ الصور. لم تخلُ معظم الأيام من لقاءات العمل والاجتماعات الرسميـة، على مائدة الغداء أو العشاء، مع المسؤولين العراقيين البارزين، في فندق الرشيد أحياناً، حيث يعمل الندل، ببزاتهم السوداء، على تقديم الطعام، أو في منزل أي مـن الساسة العراقيين. تمخضت الأمسيات عـن المزيد من اللقاءات، والأعمال، والمؤتمرات، عبـر الدوائر التلفزيونية المغلقة، مع المسؤولين في واشنطن. لم يخلد بريمر إلى النوم قبل منتصف الليل، إلا فيما ندر من الأحيان.

لـم يكن إدمان بريمر على العمل بخـافٍ على أحد، ولكن المظاهر يمكن أن تخدع فـي كثير من الأحيان. اعتـاد الرجل ارتداء سروال أزرق إلـى جانب سترته السوداء، وقد اتسما بالتناسق، ناهيك عن سهولة غسلهما. لم يمضِ بريمر كثيراً من الوقت في

تناول طعامه، مما أوحى للعديد بأن الطعام لم يمثل له سوى وقود للحياة. تعلم الرجل الطهي، في الواقع، في فرنسة، وقد عمل على إعطاء الدروس في فيرمونت، ممضياً ستاً وثلاثين ساعة، في إحدى المرات، لإعداد نوع من الصلصات. لم تقلل معارضته لسياسة الحكومة الفرنسية في العراق من محبته للمطبخ الفرنسي، أو اللغة الفرنسية، أو الريف الفرنسي. امتلك بريمر منزلاً في فرنسة، ولربما مثل الدارس الوحيد، من بين من عينهم بوش كافة، في معهد العلوم السياسية في باريس.

نشأ بريمر في هارتفورد، كونيكتيكت، ودرس الثانوية في «فيليبس أكاديمي» في أندوفر، ماساشوسيتس، متخرجا في جامعة يال، قسم التاريخ، في العام 1963. واصل الرجل دراسته ليحصل على شهادة الماجستير في إدارة الأعمال من جامعة هارفارد، قبل انضمامه إلى الخدمة الخارجية. عين بريمر، للمرة الأولى، في كابول، في الستينيات من القرن المنصرم، حيث أقام، بما اكتسب الشهرة، أول منحدر للتزلج في أفغانستان، في الجبال القريبة من العاصمة. تمركز الرجل في مالاوي، بعد إتمام دراسته في باريس، قبل العودة إلى واشنطن، حيث تم اختياره معاوناً خاصاً لكيسنجر.

افتتن بريمر بالعمل منذ شبابه، مرافقاً كيسنجر، بينما انخرط في دبلوماسيته المكوكية، في أعقاب حرب العام 1973 بين العرب وإسرائيل. غاب الرجل عن الديار مئتي يوم، في ذلك العام، بينما ولدت ابنته ليلا. ألفت زوجه فرانسيس وينفيلد بريمر، في نهاية المطاف، كتاباً بعنوان «التعامل مع نجاحه: دليل منقذ لزوجات في القمة». تحدثتْ إلى مراسل الواشنطن بوست، في العام 1982، قائلة: «أتى المنزل في أحد الأيام، قائلاً إنه تناول الغداء مع كيسنجر ودايفيد روكفيلر»، بينما تناولتْ في حينه شطائر زبدة الفستق مع ليلا وابنهما بول. جلست فرانسيس، خريجة هارفارد، تفكر، بينما كان بريمر يصف جلسة الغداء، قائلة لنفسها: «لا أقل عنه ذكاء. لم أجلس هنا، أتناول زبدة الفستق؟». تقدمت فرانسيس إلى امتحانين تأهيليين للانضمام إلى جمعية مينسا والخدمة الخارجية، لتنجح في كليهما، و«تنهي مسألة المنافسة برمتها» مع زوجها. انتقلت العائلة إلى هولندة، بعد عام من صدور مقال الواشنطن بوست، ليطلق الهولنديون اسم فرانسيس على مجموعة من زهور التوليب.

تحـول الزوجـان، في العـام 1994، إلى مذهب الـروم الكاثوليك. لـم يخفَ تأثر بريمـر، المنتمـي إلى الكنيسة الأسقفيـة منذ مولده، بالتغطيـة التلفزيونية لمشاركة البابـا يوحنا بولس الثاني في احتفالات يـوم الشباب العالمي في العام 1993. تحدث آل بريمر، في رسالتهم الأبرشية، قائلين: «تأثرنا، علاوة على ذلك، باطلاعنا، بينما كنـا في أوروبة، على الجمال التاريخي لكنيسـة القديسين، والأماكن المقدسة وعامة الناس أثناء الصلاة، والكنيسة التي مثلت بحق مهداً للحضارة الغربية».

تحدثـت فرانسيس، تعقيباً على عرض البيت الأبيض لبريمر بالتوجه إلى العراق، قائلة: إن الزوجين «أمسكا يديهما، وصليا لأجل ذلك».

اعتـاد بريمر، فـي بغداد، حضـور قداس يوم الأحـد في كنيسة القصـر، الغرفة الفسيحة المزينة بجدارية لصاروخ سكود.

أخبـر بريمـر أحد الزملاء، قبـل مغادرته إلى بغـداد، بعزمه علـى «اتخاذ بعض القـرارات الجريئة». أتـى الرجل لتخليص السفينة الغارقة مـن المياه، ووضعها على المسار الصحيح.

أمضـى بريمـر أسبوعاً، بعـد قبولـه المهمة، يعقـد الاجتماعات فـي البنتاغون، متسائلاً عما يمكن تنفيذه على الفور من الاقتراحات. سمع الرجل عن خطط لإصلاح المدارس ومحطات الطاقة، مع علمه أن العراقيين لن يلمسوا النتائج مباشرة. يشكل قتـل الناهبين، أينما وجدوا، عملاً جريئاً، وقد اقترح بريمر ذلك بالفعل في اجتماعه الأول بموظفيـه فـي بغداد، ولكنه استنتج، في نهاية المطـاف، مدى ما يتضمنه ذلك الإجراء من مخاطرة سياسية كبيرة. يعد تشكيل حكومة مؤقتة على وجه السرعة، كما رغـب غارنر، أمراً مهماً على حد سواء، ولكـن بريمر تخوف من عدم جاهزية القادة السياسييـن العراقييـن للقيام بذلك. استمع الرجل، في نهايـة المطاف، إلى الخطة المتعلقة باجتثاث البعث.

توصـل بريمـر إلى ضرورة استبعـاد الأعضاء البارزين في حـزب البعث، وإعلان ذوي الرتـب المنخفضة براءتهم منه. قارن الرجل العمليـة باجتثاث النازية من قبل

الحلفاء فـي أعقاب الحرب العالمية الثانية. لم يعلم بريمر الكثير، بكل الأحوال، عن بنية الحزب وآلية عمله.

امتلـك مكتـب دوغلاس فايث كثيراً مـن الإجابات. دار جدل عنيـف -في الأشهر التي سبقت الحرب- بين البنتاغون ووزارة الخارجية عن مدى عملية اجتثاث البعث. دافعـت وزارة الخارجية عـن سياسة «اجتثاث الصدامية»، التـي نصت على استبعاد طبقتين من البعثيين: المتورطون في الجرائم، والمتربعون على هرم السلطة. اتسمت رؤية البنتاغون بشمولية أكبر. أيد مكتب فايث استبعاد البعثيين على نطاق أوسع، بما يشمل شاغلي المناصب الحكومية البارزة، متأثراً بما كتبه المؤتمر الوطني العراقي، التابع للجلبي، عن اجتثاث النازية. اصطفت السي آي أيه إلى جانب وزارة الخارجية، بينمـا أيد مكتب نائب الرئيس موقف البنتاغون. انخـرط البيت الأبيض في الجدال، فـي نهاية المطاف. عمل مجلس الأمن القومي على التوصل إلى تسوية تتمثل في طرد ذوي الرتب العليا - الذين يشكلون ما يقارب 1% من أعضاء الحزب - من المناصب الحكومية البارزة، بينما يتم إخضاع الآخرين إلى «عملية الحقيقة والمصالحة»، على غرار ما حدث في جنوب إفريقية. عرضت الخطة، في العاشر من آذار/ مارس، على الرئيس بوش وأعضاء مجلسه الحربي الآخرين -تشيني، ورمسفيلد، وباول، ورايس- مـن قبل فرانك ميللر، رئيـس مجموعة عمل مجلس الأمن القومي عن العراق، ليوافق الرئيس عليها، بحسب اثنين من الحاضرين.

افتقـر القرار، بـكل الأحوال، إلـى الدقة. لم يعلـم موظفو مجلـس الأمن القومي آليـة تنظيم الأعضـاء البارزين في الحزب، أو عدد المنتمين إلـى المستويات العليا، بالرغـم من توافر تلك المعلومات على شبكـة الإنترنت، وفي مراكز الأبحاث. تحدث أحـد الحاضرين في الاجتماع قائـلاً: «اتسم التوجه العام، بـكل الأحوال، بالوضوح: التساهل مع أولئك الأشخاص، ومحاولة العمل معهم».

تولى مكتب الخطط الخاصـة التابع لفايث، فيما يتعلق بالبنتاغون، آليات التعامل مـع اجتثاث البعث، بإيحـاء من المؤتمر الوطنـي العراقي. جادل الجلبـي، ومسؤولو حزبه الآخرون، بقوة عن ضرورة اجتثاث البعث بصورة كلية، لإظهار التزام الولايات

المتحـدة بإقامة نظام سياسي جديد فـي العراق، ناهيك عن إقصاء الحرس القديم لتحقيق الديموقراطية. أيَّد مسؤولو المؤتمر الوطني العراقي، علاوة على ذلك، توسيع الحظر المفروض على شغل المناصب الحكومية، ليشمل المستويات الأربعة العليا في الحزب، بما لا يستثني أعضاء الفرق. لم يتمثل من يقلهم مرتبة في الحزب سوى في الأعضـاء العاملين والأنصار. لم يتعارض قرار الرئيس باستبعاد ذوي الرتب العالية، من وجهة نظر مكتب فايث، مع توسيع الحظر ليشمل أعضاء الفرق في حزب البعث.

طرحت قضية اجتثاث البعث للتداول في أول النقاشات الجدية بين بريمر، وفايث وطاقمه. تبنى الرجل ما أسفر النقاش عنه، بذلك الشأن، باعتباره يمثل أحد القرارات الجريئـة التي رغب في تنفيذهـا. عبّر بريمر، في مذكرة إلى مسؤولي البنتاغون، عن رغبتـه في أن يقتـرن وصوله إلى العـراق «بخطوات علنية، ملموسـة، وحاسمة، تؤكد للعراقيين عزمنا على اجتثاث الصدامية».

عمل مكتب فايث على صياغة مسودة قرار تنفيذي، يتألف من صفحة ونصف، في «اجتثـاث البعث من المجتمع العراقي». لم يحظـر القرار توظيف أعضاء الفرق ومن يعلوهم فحسب، بل منع الأعضاء العاملين كذلك من «شغل مناصب ضمن المستويات الثلاثة العليا للإدارة في الوزارات، وما يتبعها من شركات ومؤسسات حكومية أخرى». عرضت الوثيقة على محامي البنتاغون، وولفويتز، ورمسفيلد، بينما حجبت عن رايس وبـاول، اللذين رأيا فيها خروجاً عن تسوية اجتماع المجلس الحربي. طبعت المسودة النهائية للقرار في البنتاغون، قبل أن ترسل إلى بغداد عبر أحد معاوني بريمر.

أرسـل بريمر أحـد معاونيه، عقب ثلاثة أيـام من وصوله إلى العـراق، إلى مكتب جـاي غارنر، ليسلمه نسخة عن الوثيقة. مثل اجتثـاث البعث أول القرارات التنفيذية الصادرة عن الحاكم الأمريكي، وقد كان يخطط لإصداره سريعاً.

فكر غارنر، حين اطلع على القرار، قائلاً لنفسه: «يا إلهي. لا يمكننا القيام بذلك».

اتصـل الرجل بمدير محطة السي آي أيـه، طالباً لقاءه في التو عند مكتب بريمر. صادف غارنر في طريقه أحد سفراء وزارة الخارجية، ليطلعه على فحوى الأمور.

تحدث غارنر، قائلاً: «يجب أن نوقف هذا القرار. إنه قاسٍ للغاية».

دلف الرجل ومدير المحطة إلى مكتب بريمر.

خاطبه غارنر قائلاً: «جيري، قرارك قاسٍ للغاية. لنتصل برمسفيلد، ونرى ما إذا كان بإمكاننا التخفيف من حدته».

عقب بريمر، قائلاً: «لن نفعل بالقطع. سأصدره اليوم».

سأل غارنر مدير محطة الاستخبارات عما يمكن أن يحدث في حال إصدار القرار.

وجه الأخير إجابته لبريمر، قائلاً: «ستدفع بخمسين ألف بعثي إلى العمل السري قبل حلول الظلام. لا تفعل ذلك».

أنهى بريمر النقاش بطريقة لبقة. استدعى الرجل كبار مستشاري سلطة الائتلاف المؤقتة لإطلاعهم على القرار. كان بعضهم على علم سابق به، آملين التخفيف من حدته. انتمت ميغان أوسوليفان، التي غدت فيما بعد واحدة من كبار مستشاري بريمر السياسيين، إلى تلك الفئة، وقد أوصت، في إحدى المذكرات، بالتقليص من نطاق اجتثاث البعثيين.

تحدث ستيف براونينغ -المهندس في الجيش الأمريكي، الذي كان يدير في حينه خمساً من الوزارات- بعد أن عرض بريمر القرار، قائلاً: إن البعثيين يمثلون «عقول الحكومة النيرة... العارفين، والعالمين، والمدركين لكثير من الأمور. إن أرسلتهم إلى بيوتهم، فستواجه سلطة الائتلاف المؤقتة مشكلة كبرى في إدارة معظم الوزارات».

عقب بريمر باقتضاب، قائلاً: إن المسألة لم تكن مطروحة للنقاش.

توجهت موظفة منتدبة من الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية بالحديث إلى بريمر، سائلة عما إذا كان يدرك عواقب قراره. اكتسى وجهها بالحمرة، بينما كانت تتحدث، وقد كادت تنفجر بحسب براونينغ.

قاطعها بريمر قائلاً: إن المسألة لم تكن مطروحة للنقاش، قبل أن يغادر.

obeikandl.com

لم يضطر براونينغ إلى طرد أي من الأشخاص. انقطع البعثيون البارزون عن الحضور إلى وزارة الصحة، منذ اليوم اللاحق لصدور القرار، بحيث شغرت ثمانية من مواقع الوزارة الرئيسة البالغة اثني عشر، ناهيك عن تغيب ثلث الموظفين. فكر براونينغ، بينما كان يجول على مكاتب الوزارة، قائلاً لنفسه: «هذا جنون، هذا خطأ فادح».

تحدث دايفيد نامي، خبير وزارة الخزانة الأمريكية، ومستشار وزارة المالية العراقية، إلى أحد معاوني بريمر، قائلاً: «إن أردتموني أن أفرض هذا القرار، فسأغادر البلاد على متن أول طائرة، لأنني أراه طائشاً، ولأنكم لا تدركون مدى العراقيل التي ستضعونها أمامنا. إن اختفى أولئك الناس، فلن نملك من الأدوات ما يمكننا من إيجاد الجيل اللاحق».

صمد نامي شهراً من الزمن، قبل أن يغادر، ليعمل خلفه على تطبيق القرار.

لعب تيم كارني، كبير مستشاري وزارة الصناعة، دور الموظف المطيع. أخبر الرجل موظفي وزارته، قبل بضعة أسابيع، أن عملية اجتثاث البعث ستقاد من قبل العراقيين، ليخاطبهم الآن قائلاً: إن القواعد قد تغيرت.

انحصر معظم عمل كارني، منذ ذلك الحين، في عملية اجتثاث البعث. عقد الرجل اجتماعات عديدة مع إدارة الوزارة، بغية توضيح القرار، في بادئ الأمر، والتنقيب في سجلات الموظفين، فيما بعد، لتعيين أعضاء الفرق ومن يعلوهم. استبعد كارني، في نهاية المطاف، اثني عشر من مديري الشركات المملوكة من قبل الدولة، البالغ عددهم ثمانية وأربعين. تعين على الوزير المؤقت الرحيل، على حد سواء، بالنظر إلى كونه عضواً عاملاً في الحزب.

تحدث كارني، في وقت لاحق، قائلاً: «مثلت تلك مضيعة كبيرة للوقت. تعين علينا القيام بالعديد من الأمور الأكثر أهمية، كالبدء في تشغيل المصانع، ودفع الرواتب».

حضر رجلان في أواخر الثلاثينيات لرؤية كارني، بعد بضعة أسابيع على البدء في تطبيق القرار. عرفا عن نفسيهما على أنهما عاملان بسيطان في معمل للأسمدة في بيجي. أسر الرجلان، الجنديان السابقان، من قبل القوات الإيرانية في العام 1981،

الثاني من الحرب العراقية – الإيرانية، ليمضيا سبعة عشر عاماً في المعتقلات الإيرانية أسيري حرب. عمد صدام إلى ترقية الرجلين، غداة إطلاق سراحهما، ليصبحا عضوي فرقة، بعد أن كانا نصيرين. أكد الرجلان عدم اهتمامهما بالترقية في حينه، ولكنهما عجزا عن رفضها في عراق صدام، كيلا يزج بهما في السجن سبعة عشر عاماً أخرى، ناهيك عن فقدان ما رافقها من علاوة شهرية تقدر بخمسة وعشرين دولاراً.

تحدث أحدهما قائلاً: «نحن فقيران، والمال يهمنا».

عقب الآخر قائلاً: «اقتطعوا العلاوة إن أردتم، ولكن حسبكم أن تتركانا في وظيفتينا. لسنا بذوي الشأن من الناس، بل شخصين عاديين لا أكثر».

تأثر كارني بقصة الرجلين إلى حد مطالبة بريمر بمنحهما استثناء إنسانياً، ليوافق الأخير على ذلك – بعد مضي ستة أشهر.

أخذت سلطة الائتلاف المؤقتة، بحلول ذلك الوقت، تتلقى التقارير عن طرد ما يتراوح بين عشرة الآلاف والخمسة عشر ألف معلم من وظائفهم. كانوا من أعضاء الفرق الذين انتسبوا إلى الحزب استجابة لمطلب وزارة التربية. انتاب القلق المستشارين التربويين في سلطة الائتلاف المؤقتة. خلت مدارس بأكملها، في بعض المناطق ذات الهيمنة السنية، من معلميها كافة، اللهم باستثناء واحد أو اثنين منهم، جراء قانون اجتثاث البعث.

تحدث بريمر قائلاً: إن لجنة لاجتثاث البعث، بقيادة عراقية، ستنظر في التماسات المعلمين، قبل أن يسمح لأحمد الجلبي بإدارتها.

خاطبني أحد مسؤولي سلطة الائتلاف المؤقتة، بذلك الصدد، قائلاً: «وكأننا أولينا الثعلب مسؤولية قن الدجاج». تجاهل الجلبي التماسات المعلمين، قائلاً بضرورة تعيين الوزارة معلمين جدداً إن احتاجت إليهم. قلل بريمر من شأن المشكلة، حين اشتكى مسؤولو سلطة الائتلاف بخصوصها، مؤكداً، في الوقت ذاته على ما تتسم به عملية اجتثاث البعث من أهمية في مجملها.

تحـدث الرجل، بذلك الصدد، قائلاً: «لا تمثل أهم ما قمنا به في العراق فحسب، بل أكثره شعبية».

اتصـل دوغلاس فايث، قبل بضعة أيام من بدء الحـرب، بسلفه والتر سلوكومب، الديموقراطي المعتدل، الذي شغل المنصب ست سنوات في عهد كلينتون، وعرف إلى حد كبير في البنتاغون. خاطبه فايث قائلاً: «نرغب في أن تكون المسؤول المدني عن الجيش العراقي، هل أنت مهتم؟».

قابل سلوكومب، الذي كان يزاول القانون في واشنطن، مطلب فايث بالإيجاب. أمضـى الرجـل، أثناء سنـوات عمله في البنتاغـون، أوقات طويلة فـي العمل على صياغـة السياسة المتبعة إزاء العـراق، وقد أتيحت له الفرصة الآن للانخراط في الجانب العملي.

توجـه سلوكومـب إلى البنتاغـون للاطلاع على الوضـع. أملت القيـادة العسكرية الأمريكيـة فـي عدم انخـراط الجيش العراقي فـي القتال، وإن كانـت تتوقع مشاركة تشكيـلات أخرى في الحرب. رجـح مسؤولو البنتاغون انخـراط الحرس الجمهوري، والحرس الجمهـوري الخاص، وفدائيي صدام فـي القتال، بينمـا رأوا إمكانية إثناء الجيش النظامي عن التدخل. وضع ذلـك التقويم بمشاركة السي آي أيه، التي عملت على الاتصال مع عدد من القادة العسكريين العراقيين.

تمثلـت الخطـة، كما رآهـا سلوكومب وفايث، فـي حل الحرس الجمهـوري وقوات الفدائييـن، وإعـادة النظر في بنية الجيش النظامي المؤلف مـن 400 ألف جندي. سيتم إرسال القادة الكبار، من ذوي الرتب العالية في حزب البعث، كما هو مفترض، إلـى بيوتهـم، بينما يسمـح للضبـاط ذوي الرتب المتوسطـة، ومن دونهـم، بالبقاء. سيكلفـون في بـادئ الأمر، بإزالـة الحطام، وترميـم البنية التحتيـة، وتنفيذ المهام الأمنيـة الأساسية، كحمايـة المباني. تباينت الآراء في إعـادة تنظيمهم في الجيش. جـادل بعضهم في البنتاغون، استناداً إلـى تقارير للجلبي ومنفيين آخرين، عن مدى ما بلغه الجيش من فساد وتضخم، ليقترحوا تشكيل فيالق جديدة.

وافق الرئيس بوش ومجلسه الحربي على الخطة، في الثاني عشر من آذار/ مارس، عقب يومين من مناقشة اجتثاث البعث. اشترطت إحدى النقاط المعروضة على بوش «الإبقاء على الوضع الراهن» للجيش، باعتباره يمثل أحد عناصر خطة ما بعد الحرب، محذرة من عدم قدرة الولايات المتحدة على «تسريح ما بين مئتين وخمسين إلى ثلاث مئة ألف جندي بصورة مباشرة، ورميهم في الشارع». خاطب فايث الرئيس قائلاً: إن الجيش سيستخدم «قوةً وطنية لإعادة الإعمار إبان المرحلة الانتقالية».

ارتضى الجميع الخطة، كما بدت الحال عليه. تعاقد مكتب فايث مع اثنتين من الشركات الاستشارية المتخصصة، بغية وضع الخطط لإعادة تشكيل القوات العراقية. أرسلت القيادة المركزية طائرات فوق العراق لإلقاء منشورات تحث الجنود على عدم القتال. صورت إحداها عائلة من زوجين، وخمسة أطفال، يجلسون على مائدة الطعام، مذيلة بالعبارة الآتية: «ابقوا في منازلكم آمنين مع عائلاتكم. نناشدكم عدم الانخراط في قتال قوات التحالف؛ كيلا يتم استهدافكم».

استجاب العراقيون، على وجه العموم، لتلك المنشورات. التزم العديد من عناصر الجيش النظامي بيوتهم، حتى بلغت الدبابات الأمريكية بغداد، ووصل بريمر العراق، بالرغم من انخراط عدد من وحدات الحرس الجمهوري في القتال.

خاطبني مصطفى الدليمي، المقدم طويل القامة، قبل بضعة أيام من وصول بريمر، قائلاً: «ننتظر أوامرنا، متأهبين لمساعدة بلدنا».

تلاشى الجيش العراقي، كما بدت الحال عليه، في نظر كل من سلوكومب وفايث، بالنظر إلى خلو قواعده، وتعرض العديد منها للنهب من قبل المدنيين، أو الجنود الفارين. تحدث الجنرال جون أبي زيد، الذي أصبح فيما بعد قائداً للقيادة المركزية الوسطى، بعد شهر من تحرير بغداد، عبر دائرة تلفزيونية مغلقة، قائلاً: إن الضرر لم يستثنِ أياً من الوحدات العسكرية العراقية.

توقع سلوكومب بقاء الجنود العراقيين في مواقعهم، بالرغم مما ألقي عليهم من منشورات. أدرك الرجل أن استدعاءهم ثانية سيسبب قدراً أكبر من المشكلات.

تعرضت القواعد للنهب، بما أفقدها صلاحية الاستخدام، ناهيك عن افتقار معظم الجنود، المؤلفين من الشيعة، كما افترض سلوكومب، إلى الرغبة في العودة. لو توافرت الثكنات الصالحة للاستخدام، لما عاد إليها سوى الضباط الفاسدين من السنة، الراغبين في استعادة مواقعهم. حل الجيش العراقي نفسه، في نظر كل من سلوكومب وفايث، ولم يرَ الرجلان تعارضاً بين إضفاء الصبغة الرسمية على ذلك، وما أصدره بوش من تعليمات.

خالف العديد، ضمن الجيش الأمريكي ووزارة الخارجية، هذا التقويم فيما بعد، مؤكدين على ما أمكن للاستدعاء الطوعي توفيره من فرص لتعيين نخب القادة الواعدين، وتشجيع الجنود، عبر منحهم الأموال والتدريب العسكري. كان بمقدور الجنود سكنى معسكرات من الخيم، بينما يعملون على إصلاح ثكناتهم. لربما كان السنة يشغلون معظم المناصب العليا في الجيش، بصورة غير متكافئة، ولكن الآلاف من الجنود الشيعة، المعوزين إلى المال، كانوا سيعودون على الأرجح.

تلقى سلوكومب، قبل مغادرة بريمر إلى بغداد، تقارير عن اعتزام ضباط الجيش العراقي السيطرة على المؤسسات الحكومية. اقترح الرجل على بريمر إصدار قرار رسمي بحل الجهاز الأمني برمته، بما يشمل أجهزة صدام الاستخبارية. مثلت تلك فرصة مواتية لبريمر لاتخاذ قرار جريء آخر.

طالب بريمر سلوكومب بالعمل على صياغة مسودة قرار بحل القوات الأمنية. أرسل بريمر، قبل مغادرة الولايات المتحدة، نسخة عن المسودة إلى رمسفيلد، مع رسالة تفيد باعتزامه إصدار القرار.

لم يسأل بريمر وزارة الخارجية أو السي آي أيه عن رأيهما، ناهيك عن عدم استشارة رايس أو هادلي في مجلس الأمن القومي. لم يستثنِ التعتيم معظم موظفي سلطة الائتلاف المؤقتة، على حد سواء، بينما عرض بريمر قراره على السياسيين العراقيين العائدين من المنفى – من الشيعة والأكراد الذين تعرضوا للاضطهاد على يد الجيش. بدا حل القوات الأمنية فكرة عظيمة في نظرهم. لو استطلع بريمر آراء المزيد من الأمريكيين والعراقيين، بكل الأحوال، فلربما أحاط بمشاعر مماثلة

لمـا يكنّـه المقدم الدليمي، الـذي كان مستعداً لمعاودة العمل خدمـة لبلده. ما انفك الدليمـي يخبرني أن الجيش لم يشكل لخدمة صـدام. تحدث الرجل، بذلك الصدد، قائلاً: «أسس الجيش قبل مدة طويلة من تولي صدام الرئاسة. لا ندين بالولاء لأي من الرجال، بل لبلدنا».

أصدر بريمر، بعد أحد عشر يوماً من وصوله العراق، القرار الثاني لسلطة الائتلاف المؤقتـة، الـذي لم يكن ينصـص على حل القـوات البريـة فحسب، بل القـوى الجوية، والبحرية، ووزارة الدفاع، والاستخبارات العراقية. أوجد بريمر، بتوقيعه القرار، كثيراً مـن الأعداء الجـدد. كان العديد منهم يتوق للحرية، ولكنهـم كانوا بحاجة للحصول علـى وظائف في بلد تبلـغ نسبة البطالة بين سكانه الراشديـن الأربعين بالمئة. تمثل عشـرات الآلاف من المشموليـن بالقرار في الجنود المحترفيـن، كمصطفى، الذين أتقنـوا العمـل العسكري في حياتهم، لا غير. تعين عليهـم، بعد الحصول على مكافأة نهاية الخدمة، البحث عن وظائف في بلد يفتقر إليها.

لـو سـأل بريمر القيـادة العسكرية الأمريكية عـن رأيها في الأمـر، لسمع ما قاله الجنـرال دايفيـد مكيرنان، أول قائد للقـوات البرية في العراق، يـوم إصدار القرار: «أصبح عدد كبير من الجنود العراقيين بلا عمل الآن. يمثل هذا باعث قلق حقيقي».

تجمع الآلاف من الجنود الغاضبين عند بوابة السفاح، في غضون أسبوع من الزمن، للاحتجاج على قرار بريمر. صرخ العديد منهم قائلين: «نريد استعادة وظائفنا»، بينما رفع آخرون لافتـات تحمل العبارة الآتية: «أين هي وعودكم يا قوات التحالف؟، أعيدوا النظر في قرار حل الجيش العراقي». عملت القوات الأمريكية على صد المتظاهرين.

خاطبني الرائـد سعد العمري، المعيل الأوحد لعائلة مكونة من ستة أفراد، قائلاً: «لا نريـد أن نعامل بهـذه الطريقة. إن لم يغير الأمريكيون هـذه السياسة، فسيثيرون المتاعب. لن يسكت العراقيون عن ذلك».

أعلـن بريمر، فـي نهاية المطاف، عن منح راتب شهـري لضباط الجيش من غير ذوي الرتـب العالية من البعثيين. كشـف الرجل النقاب، علاوة على ذلك، عن خطط

لتشكيل جيش جديد، يتألف –في بادئ الأمر– من أربعين ألف جندي من المشاة، مجرداً من الدبابات أو المدفعية، تقتصر مهمته على تأمين حدود العراق. لم تكفل الخطط إدماج الجنود السابقين. تعين عليهم الذهاب إلى معسكر تدريبي أولاً.

كان الأوان قد فات، في حينه، بكل الأحوال. قلل الحاكم الأمريكي من احترام الجنود القدامى في بلد الشرف والأعراف. لم أصادف العمري ثانية، ولكنني رأيت –بعد مضي أشهر– جندياً سابقاً آخر من المشاركين في الاحتجاج.

سألته قائلا: «كيف جرت الحال مع المحتجين؟، هل انضموا إلى الجيش الجديد؟».

ضحك الرجل، قبل أن يجيبني قائلاً: «باتوا جميعاً من المتمردين. أضاع بريمر فرصته».

استدعى بريمر المنفيين إلى اجتماع في القصر، قبل بضعة أيام من إصدار القرار بحل الجيش العراقي. ضم الاجتماع ستة السياسيين الذين التقوا غارنر في السابق: أحمد الجلبي وإياد علاوي، وإبراهيم الجعفري وعبد العزيز الحكيم، من الشيعة، والزعيمان الكرديان جلال الطالباني ومسعود البرزاني. التحق بهم عدنان الباجه جي، السياسي السني المخضرم، الذي شغل منصب وزير الخارجية قبل تولي البعثيين السلطة في أواخر الستينيات من القرن المنصرم. توقع العراقيون أن يتحدث بريمر عن خطط متعلقة بعقد مؤتمر وطني آخر، يتمحور حول تشكيل حكومة مؤقتة، ناهيك عن مطالبتهم بأداء دور قيادي.

تصرف سبعة الرجال، منذ سقوط صدام، بما يسم أرباب الحكم من تيه. عاد الجلبي من لندن، ليستقر، بمساعدة الميليشيا التابعة له، في نادٍ خاص يقع في أكثر أحياء بغداد رقياً، حيث حج الزوار الذين كانوا يتعاطون معه بما يليق برؤساء الدول من مهابة. حضر الطالباني والبرزاني، المحاطان بعشرات الحراس المدججين بالسلاح، من شمال العراق الخاضع للسيطرة الكردية؛ كي يشغلا أكبر فنادق بغداد. اتخذ علاوي من مكتب فخيم لحزب البعث مقراً له، بالقرب من المنطقة الخضراء.

انتقل بريمر إلى صلب الموضوع، بعد سلسلة من المداعبات. لن تكون هناك حكومة مؤقتة. لم تنوِ الولايات المتحدة إنهاء احتلالها في وقت قريب. مثل بريمر الحاكم الأمريكي، وقد كان المسؤول الأول. عقب الرجل بانفعال، حين قاطعه أحد المنفيين قائلاً: إن العراقيين يريدون مواطنيهم في موقع المسؤولية، لا الأمريكيين، ليخاطبه قائلاً: «أنت لا تمثل البلاد».

جسدت تلك نقطة تحول لافتة في السياسة الأمريكية. عمل بريمر ومعاونوه على إلقاء المسؤولية عن كاهل البيت الأبيض، وإن مثل ذلك قرار الحاكم الأمريكي. سعى الجميع، قبل مغادرته الولايات المتحدة، إلى التأثير في مخططه السياسي: حثه دوغلاس فايث على تشكيل حكومة مؤقتة بزعامة المنفيين، حثه بول وولفويتز على إجراء انتخابات في أسرع وقت ممكن، حثته وزارة الخارجية على عقد مؤتمرات للواعدين من مرشحي الداخل، وحثه بوش، بكل الأحوال، على تقويم الموقف بصورة شخصية، وإصدار ما يراه مناسباً من الأحكام، ناهيك عن الإبطاء من وتيرة سير العملية إن ارتأى ذلك. تمثل الهدف، بحسب بوش، في إقامة إدارة مؤقتة تمثل الشعب العراقي.

أدرك بريمر سريعاً مدى الضعف التنظيمي الذي يعتري المنفيين، ناهيك عن افتقارهم إلى الشعبية التي تخولهم إدارة البلاد – رفعت الشعارات المنددة بالجلبي قرب ناديه الفخيم. وعد المنفيون غارنر بتوسيع مجلس قيادتهم ليشمل النساء، وشخصيات الداخل، والعرب السنة، ليفشلوا في تحقيق ذلك.

خاطبني أحد مستشاري بريمر قائلاً: «لم تتسم فكرة بعضهم في واشنطن بالواقعية، من حيث قدومنا هنا، وإقامة الوزارات، وتسيير الأمور على ما يرام، والخروج بعد بضعة أشهر. منحناهم الفرص، ومولنا بعضهم، ولكنهم عجزوا عن تحقيق المهمة، مفتقرين إلى الحرفية في عملهم».

تجسدت خطة بريمر، التي لخصها للمنفيين، في تشكيل مجلس من خمسة وعشرين عراقياً، لتقديم المشورة في المسائل السياسية، بما يشمل المنفيين

وشخصيات الداخل، والعرب والأكراد، والشيعة والسنة، والرجال والنساء، بعد أن يتم انتقاؤهم بعناية من قبل بريمر، صاحب القول الفصل في المسائل كافة.

مثل تشكيل المجلس فكرة معقولة – كإجراء مؤقت حتى تعقد الانتخابات لاختيار حكومة شرعية. بلغ الطموح مبلغه من بريمر بكل الأحوال. أخبر الرجل المنفيين عن مخططه للبقاء في العراق حتى وضع دستور جديد، وإجراء انتخابات وطنية، وتشكيل حكومة جديدة. لم يحدد بريمر جدولاً زمنياً لذلك، ولكن معاونيه قدروا المدة بعامين أو ما يزيد.

هاج المنفيون وماجوا، مهددين بمقاطعة المجلس، ليشاركوا فيه جميعاً، في نهاية المطاف. شكل مجلس الحكم، المكون من خمسة وعشرين عضواً، في 13 تموز/يوليو، عقب شهرين من وصول بريمر. تألف المجلس من ثلاثة عشر شيعياً، وأحد عشر سنياً، ومسيحي واحد، مما شكل اعترافاً ضمنياً بتجاوز عدد الشيعة السنة في البلاد. تألف السنة من خمسة من الأكراد، ومثلهم من العرب، وتركماني واحد. مثل النساء ثلاثة من أعضاء المجلس، بينما احتل المنفيون تسعة من مقاعده، لا أكثر.

استشرف أكثر الزعماء الشيعة تأثيراً في العراق المستقبل، بينما كان بريمر منشغلاً باختيار أعضاء المجلس. انتاب القلق آية الله العظمى علي السيستاني من سعي الأمريكيين إلى التأثير في صياغة الدستور. لربما ثارت مخاوف الرجل جراء مقال في النيويورك تايمز عن نواه فيلدمان، أستاذ القانون في جامعة نيويورك، المعين من قبل سلطة الائتلاف المؤقتة لتقديم المشورة إلى كتبة الدستور العراقي. التقطت الفضائيات العربية القصة، لتضيف إليها تفصيلاً واحداً: فيلدمان يهودي.

وهن العظم من السيستاني، ذي العمامة السوداء، وغزا الشيب لحيته. ولد الرجل في إيران، وتلقى العلم في العراق، مقيماً في النجف المقدسة، التي تبعد قرابة التسعين ميلاً إلى الجنوب من بغداد. امتلك السيستاني، بالرغم من عمله في مكتب متواضع في أحد الأزقة، سلطة هائلة لتأويل الشريعة الإسلامية في كل من شؤون الحياة اليومية في العراق.

استلـزم بريمر ومعاونيه أشهر للوصول إلى السيستاني. اضطرت سلطة الائتلاف المؤقتـة إلـى الاتـكال علـى وسطـاء عراقيين، بالنظـر إلى رفضـ آيـة الله الالتقاء بالأمريكييـن. تمثـل مبعوث الحاكم الأمريكي الأول في أمريكـي عراقي من فلوريدة، يعمـل ضمـن فريق العراقييـن المنفيين المعينين مـن قبل وولفويتـز، للمساعدة في عملية إعادة الإعمار. لم يكن الرجل دبلوماسياً، أو يعمل في السياسة، بل مختصاً ثرياً في المجـاري البولية، أجرى عمليات ناجحة لرجـال مهمين. عمدت سلطة الائتلاف المؤقتـة، بعـد تلقي تقارير عن مبالغـة الرجل في تضخيم علاقاتـه بالبيت الأبيض، إلـى استبدال مدير صيدلانـي، من ميتشيغان، به. لم يظهر أي من الرجلين الصفات المطلوبة، كما أخبرني سياسيون شيعة لاحقاً.

سألني أحدهم قائلاً: «إنك كنت تحتل إيطالية، فهل سترسل طبيبة لزيارة البابا؟».

أصـدر السيستانـي فتوى، قبل أسبوعين من إعلان بريمـر تشكيل مجلس الحكم، تنص على ضرورة كتابة دستور العراق من قبل ممثلين منتخبين. لم تكن لجنة صياغة مسـودة الدستـور -المشكّلـة أمريكياً- «مقبولـة»، بحسب السيستانـي، «لعدم وجود ضمانـة بوضعهـا دستوراً يكفل مصالـح الشعب العراقي، ويعبر عـن هويته الوطنية، وقيمه الاجتماعية السامية».

لم تلقَ فتـوى السيستاني سوى التجاهل من قبل سلطـة الائتلاف المؤقتة. تحدث أحـد كبار معاوني بريمر، في وقت لاحـق، قائلاً: «لم تكن بالمؤثرة. تمثل كل ما علينا القيام به في تكليف أحدهم إصدار فتوى مغايرة».

المنطقة الخضراء، المشهد الثالث

مـلأت الشعارات المؤيدة لبوش القصر الجمهـوري، ناهيك عن قمصان «بوش – تشينـي 2004»، إلـى جانب البزات العسكريـة (ارتدى دان سينـور، المتحدث باسم بريمـر، أحد تلك القمصان في سباق نظم فـي المنطقة الخضراء يوم عيد الشكر). لـم يعترِ القلق موظفي سلطة الائتـلاف المؤقتة بشأن الحصول على فرص للعمل بعد مغادرتهم بغداد. أخبرني العديد منهم، قائلين: «آه، سنعمل في الحملة» (حملة إعادة انتخاب الرئيس بوش).

تحدث أحد الموظفين قائلاً: «لست هنا لأجل العراقيين، بل الرئيس بوش».

حدق الجميع في غوردن روبيسـون، الموظف في مكتب الاتصالات الإستراتيجية، حين فتح الطـرد المرسل من والدته، ليجد كتاباً لبول كرغمان، الكاتب الليبرالي في النيويـورك تايمز. تحدث روبيسون، بذلك الصـدد، قائلاً: «وكأنني أمطت اللثام عن قنبلة مشعة».

لـم يعمل كثير مـن الديموقراطيين فـي سلطة الائتلاف المؤقتـة. تمثل معظمهم بالجنـود والدبلوماسييـن المحمييـن، بنص القانـون، مـن المساءلـة فيمـا يتعلق بتوجهاتهـم السياسية. شكل عدد منهـم، بقيادة مسؤول شاب في الخدمة الخارجية، مجموعـة دعم، أسموها «حمير في الصحـراء». اعتادوا الالتقاء عند بركة السباحة، مسـاء كل يوم الإثنين، لتناول البيتـزا، والتنفيس عن هموم الحياة في «قصر الحزب الجمهـوري»، ناهيك عن التلاقي في مسرح القصر، بيـن الفينة والأخرى، لمشاهدة الأفلام. مثل «فهرنهايت 9/ 11»، لمايكل مور، أفضل ما تابعوه منها.

تعرضـ أفـراد المجموعة للمضايقة، بصـورة دورية، من قبل مـن دعوهم «بفيلة القصـر» مـن الجمهورييـن المتعصبيـن. لطالما كانـت ملصقاتهم تنـزع من لوحة الإعلانـات، أو تشـوه بشعـارات مؤيدة للجمهورييـن. أحاط معظم أفـراد «حمير في

الصحـراء» عضويتهـم بالسريـة؛ مخافـة أن يغـدوا منبوذيـن فـي مدينـة الزمرد. تلقـى أعضاء المجموعـة قمصاناً تحمل عبارة «عـراق ديموقراطـي»، تصور حماراً بيـن شجرتي نخيـل، ليحتفظ بهـا معظمهم، مع ذلـك، في حقائبهـم. شبه أحدهم الديموقراطـي في المنطقة الخضراء بالشاذ في بلدة صغيرة، قائلاً: «إن كنت تدرك صالحك، فستحيط الأمر بالكتمان».

عمل الديموقراطيون على توسيع قاعدتهم عبر التواصل مع المنتسبين إلى الحزب الجمهـوري بالاسـم، لا أكثـر، داخل الجيش، وبخاصة جنود الاحتيـاط المحبطين من قـرار رمسفيلد بإرسالهم إلـى العراق عاماً أو أكثر. انطـوى التقرب منهم، بكل الأحوال، على المخاطر. ران الصمت على الحاضرين، حين سخر أحد معارفي، من الديموقراطيين، من بوش على مائدة غداء مشتركة. خاطبني الرجل بذلك الصدد، فـي وقت لاحق، قائـلاً: «وكأنني أطلقت ريحاً بصوت مرتفـع، ليحدقوا بي للحظات، قبل أن يشيحوا بوجوههم».

obeikandl.com